صفحة أدبنا المجهول — شاعر يرثى ولده بديوانه

اقتراح القريح واجتراح الجريح

لأبي الحسن علي الحصري

[للأستاذ الزيات عزاء وسلوة]

للأديب السيد أحمد صقر

— ٢ —

الحصري المجهول : هناك بين طيات القرون الغابرة ، ثبت ضخم حافل بكثير من نوابغ الأدباء ، وعباقرة الشعراء ذوي الجد العاثر والطالع النكد ، الذين جار عليهم الزمان فطوى ذكرهم وطمر تراثهم . ولو عنى الناس بأمر هؤلاء المحدودين ، وبعثوهم من مراقدهم ونشروا آثارهم ، لكان للأدب من ذلك ثروة طائلة

من هؤلاء الشعراء المجهولين أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري القيرواني الضرير ، صاحب كتاب « اقتراح القريح واجتراح الجريح » . والحصري — بضم الحاء وإسكان الصاد — نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها

ويشترك مع أبي الحسن هذا في لقبه شاعر معاصر آخر ، كانت بينه وبينه وشيجة نسب ، أعني به ابن خالته الأستاذ « ابراهيم الحصري » صاحب كتاب « زهر الآداب » المتوفى سنة ٤٥٣ من الهجرة (١٠٦١ م)

وقد اشتبه أمرهما على كثير من الناس فحسبوا ذاك هذا ، ونسبوا آثار هذا لذاك ! وأرخوا لأحدهما بتاريخ الآخر ، ولكن الأمر لم يشتبه على الراسخين في العلم ، فوضعوا الحق في نصابه

اكتنف الغموض حياة أبي الحسن الحصري من كل ناحية ، فلسنا نعرف نشأته ولا ثقافته ، وليس فيما بين أيدينا من المصادر ترجمة دقيقة شاملة نعتمد عليها في تأريخنا له ، وكل ما وجدناه نتف متشابهة ، وشذرات مقتضبة ، لا تجدي نفعاً ؛ وقد أحببت أن أنقلها للقراء علها تلقي شيئاً — ولو ضئيلاً — من الضياء على حياة ذلك الشاعر العبقري ، وترسم صورة — ولو شاحبة — لذلك الأديب المجهول

١ — ذكره ابن بسام في ذخيرته ، فقال : « كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق ، ممور الطريق ، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الدار في الأنس بالقيم ؛ على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن ، مشهور اللسن ، يتلفت إلى الهجاء ، تلفت الظمآن إلى الماء ، ولكنه طُوِي على غَرِّه ، واحتمل بين زمانه وبُعْدَ قطره ، ولما خلع ملوك الطوائف بأفقنا ، اشتملت عليه مدينة طنجة ، وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه ... »[1]

٢ — وذكره ابن بشكوال في الصلة فقال : « علي بن عبد الغني الفهري المقرئ الحصري القيرواني يكنى أبا الحسن ، ذكره الحميدي وقال : شاعر أديب ، رخيم الشعر ، دخل الأندلس ولقي ملوكها ، وشعره كثير ، وأدبه موفور ، وكان عالماً بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس القرآن بسبتة وغيرها . أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي نظمها في قراءة نافع ، وهي مائتا بيت وتسعة أبيات قال لقيه بمرسية سنة ٤٨١ هـ وتوفي بطنجة سنة ٤٨٨ هـ »[2] الموافقة لسنة (١٠٩٥) ميلادية

٣ — وذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ، فأورد قول ابن بسام ثم قال : « قلت وهذا أبو الحسن ابن خالة أبي اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب » ونقل كلام ابن بشكوال والحميدي ثم قال : « وله ديوان شعر . فمن قصائده السائرة قصيدته التي أولها :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده ؟
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده

إلى أن قال : وحكى تاج العلاء أبو زيد المعروف بالنسابة قال : حدثني أبو أصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارثي عن جده زيد بن محمد قال : بعث المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية إلى أبي العرب الزبيدي خمسمائة دينار وأمره بأن يتجهز بها ويتوجه اليه

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٢
(٢) صفحة ٤٢٥ من المجلد الثاني طبع بجريط ١٨٨٣ م

وكان بجزيرة صقلية ، وبعث مثلها الى أبي الحسن الحصري وهو بالقيروان فكتب اليه أبو العرب :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى
واعجب لأسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجري السفين به
إلا على غرر والبر للعرب

وكتب اليه الحصري :

أمرتني بركوب البحر أقطعه
غيري ـ لك الخير ـ فاخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته
ولا المسيح أنا أمشي على الماء

ثم دخل الأندلس بعد ذلك وامتدح المعتمد وغيره ، وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بطنجة رحمه الله تعالى[1]

٤ — وذكره ابن العماد الحنبلي في كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ فقال : فيها أبو الحسن الحصري القيرواني الشاعر نزيل سبتة ـ علي بن عبد الغني الفهري . كان مقرئاً محققاً ، وشاعراً مفلقاً ، مدح ملوكاً ووزراء ، وكان ضريراً . ثم نقل قول ابن بسام المتقدم وعقبه بقول ابن خلكان ، ثم قال وله أيضاً :

أقول له وقد حيا بكأس لها من مسك ريقته ختام
أمن خديك تعصر ؟ قال كلا متى عصرت من الورد المدام[2]

ولما كان بمدينة طنجة أرسل غلامه الى المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ـ واسمها في بلادهم حمص ـ فأبطأ عنه وبلغه أنه ما احتفل به فقال :

نبه الركب الهجوعا ولم الدهر الفجوعا
حمص الجنة قالت لغلامي لا رجوعا
رحم الله غلامي مات في الجنة جوعا

وقد التزم في هذه الأبيات لزوم مالا يلزم رحمه الله تعالى[3]

٥ — وذكره الصلاح الصفدي في كتابه نكت الهميان وكل ما أتى به منقول عن ابن خلكان وابن بشكوال ، وزاد عليهما فذكر البيتين اللذين ذكرهما ابن العماد . أقول له وقد حيا بكأس[1]

٦ — وذكره ابن الجزري في كتابه غاية النهاية فقال : « علي ابن عبد الغني أبو الحسن الفهري القيرواني الحصري أستاذ ماهر ، أديب حاذق ، صاحب القصيدة الرائية في قراءة نافع ، وناظم السؤال الدالي ملغزا : سألتكم يا مقرئي الغرب كله
وهي في سواءات أجابه عنه الشاطبي ومن بعده
قرأ على « عبد العزيز بن محمد » صاحب أبي سفيان ، وعلى « أبي علي بن حمدون الجلولي[2] » والشيخ « أبي بكر القصري » وروى عنه « أبو القاسم بن الصواف » قصيدته ، وأقرأ الناس بسبتة وغيرها . توفي بطنجة سنة ثمان وستين وأربعمائة . ثم نقل قول ابن خلكان في وفيات الأعيان[3] » ، وقول ابن الجزري إن الحصري الأعمى توفي سنة ٤٦٨ هـ قول لم يشاركه فيه غيره من المؤرخين ، ولعله وهم أو تحريف من الناسخين

٧ — وذكره العماد الكاتب في كتاب خريدة القصر . وجريدة أهل العصر ، فقال : الحصري الأعمى الرقيق : هو أبو الحسن علي بن عبد الغني من الأندلس (!) صاحب تصنيفات واحسان في النظم ، قال في غلام اسمه هارون :

يا غزالا فتن الناس بعينيه فتونا
أنت هاروت ولكن صحفوا تاءك نونا

وقال يهجو أبا العرب الصقلي :

معجب كالتنبي وهو لا يحسن شيا
إن هذا يحيوى أوتي العلم صبيا

وقال :

كم من أخ قد كان عندي شهدة حتى بلوت المر من أخلاقه
كالملح يحسب سكراً في لونه ويجمه ويحول عند مذاقه

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٢
(٢) يذكرني هذا البيت بقول المرحوم حافظ بك ابراهيم في وصف الصهباء :
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس
(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٥

(١) انظر نكت الهميان في نكت العميان ص ٢١٣
(٢) هو محمد بن حمدون أبو الحسن الواسطي الحذاء ، وهم فيه صاحب التجريد فسماه علياً ، ووهم فيه الهذلي فسماه عبدالله . كان من أهل الثقة والأتقان والضبط توفي سنة عشر وثلثمائة أو في التي بعدها ...
(٣) راجع غاية النهاية في طبقات القراء ج ١ ص ٥٥١

وقال يرثى المعتضد أبا المعتمد :

مات عبـاد ولـكن بقى الفرع الـكريم
فـكأن الميت حى غير أن الضـاد ميم

وقال : أقول له وقد حيا الخ البيتين

وقال :

وشاعر من شـعراء الزمان يفخر عندى بالمعانى الحسان
وإنما أطيب أشـــعاره نصف خراسان والقيروان (؟)

وقال :

إذا كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب

وقال :

مما يغضنى فى أرض أندلس سماع معتصم فيها ومعتضـد
أسماء مملكة فى غير موضـــعها
كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد[1]

وقوله اذا كان البياض الخ ذكره المقرى فى نفح الطيب وزاد عليه قوله :

ألم ترنى لبست بياض شيبى لأنى قد حزنت على شبابى

وذكر أيضاً أن من عادة أهل الأندلس لبس البياض فى الحزن بخلاف أهل المشرق . وذكر لبعضهم أبياتاً فى ذلك[2]

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم فى مآتمكم بياضاً فجئتم منه فى زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولاحزن أشد من المشيب

٨ — وذكره الراكشى عرضاً عند كلامه على نزول المعتمد مدينة طنجة قال : « فأقام بها أياماً ولقيه الحصرى الشاعر فجرى معه على سوء عادته من قبح الـكدية ، وإفراط الألحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان مدحه بها ، وأضاف الى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله اليه ، ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زود به — فيما بلغنى — أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ، سقطت من حفظى ، ووجه بها اليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره ، وخفته عليه . وكان هذا الرجل — أعنى الحصرى الأعمى — أسرع الناس فى الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قل لمن قد جمع العا لم وما أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر فتنظرنا جـــوابه
قـد أثبناك فهلا جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحفى أهل الـكدية ما صنع المعتمد — رحمه الله — مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الأغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة نفسية طى الحشا ساواهم فى المطلب[1]

هذه هى كل التتف والشذرات التى عثرت عليها فى كتب التراجم لذلك العهد السحيق . وكل هذه التراجم — إن صحت تسميتها بذلك — لا تـكشف لنا عن حياة الشاعر ، ولا تبين مقدار قوة شاعريته أو ضعفها ، ولا توضح أثره فى الأدب ، ولا تتناول أدبه بالنقد والتحليل . والذى يستوقفنى منها بصفة خاصة قول المراكشى : « كان هذا الرجل أسرع الناس خاطراً فى الشعر » وقول ابن بشكوال نقلا عن الحميدى « إن شعره كثير ، وأدبه موفور » ، فأين ذلك الأدب الموفور والشعر الـكثير الذى واتاه به طبعه الدافق فى يسر وسهولة ؟ أين قصائده فى الهجاء الذى « كان يتلفت اليه تلفت الظمآن الى الماء ؟ » أين قلائده التى قلد بها ملوك الطوائف حتى تهادته تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأنس بالقيم ؟ أين خرائده فى الوزراء الذين أغدقوا عليه النعم ؟ أين أين ذلك الشعر الرخيم ؟ ؟ لقد غمره طوفان الفناء فيما غمر ، ولم يبق له جرس ولا أثر ، والمسؤول عن ذلك هو الحصرى نفسه فهو الذى أهمل ولم يحسب لذلك الطوفان حساباً ، ولم يدون من شعره غير كتاب اقتراح القريح واجتراح الجريح . ولدينا مجموعة صغيرة من شعره فى الغزل والنسيب اسمها « معشرات الحصرى » سنتكلم عنها بعد أن نروى لك كثيراً من شعره فى اقتراح القريح . . .

أحمد صقر

(١) أنظر الجريدة ص ٢٣ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الـكتب المصرية تحت رقم ٢٥٥ : أدب

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٠٦ طبع بولاق .

(١) انظر المعجب ص ٢٧ طبع مصر